هنـــــد أبــو الشعــر: وجــوه إبــداع متعـــــددة مـــع إجـــراء نقـــــدي

د . نبيل حداد *

لعل أول ما يمكن ملاحظته في شخصية هند أبو الشعر هو أنها شخصية ثقافية ذات جوانب متعددة، من حيث **الجانب الشخصي الإنساني، والجانب الفني الإبداعي، إضافة إلى الجانب الأكاديمي؛ بوصفها أستاذة وباحثة في أكثر من حقل ثقافي، فضلًا عن جانب الناشطة الثقافية بحضورها الفاعل في المشهد الثقافي.**

أما الجانب الأول، الشخصي الإنساني، فلا حاجة للتوقف عنده طويلًا؛ فثمة إجماع، بين كل من عرف الدكتورة هند، على دفئها الإنساني، وتجسيدها الدائم لروح المرحلة التنويرية، وبأنها ابنة أزيد من مرحلة معاصرة، بل إنها نموذج بهيّ من خيرة من يمثل مسيرة المرأة الأردنية المعاصرة، موقفًا حضاريًّا وإنجازًا ثقافيًّا، وعطاءً إنسانيًّا.

* رئيس قسم اللغة العربية وآدابها- جامعة اليرموك.

والجانب الثاني في شخصية هند، هو الجانب الفني والإبداعي، وليس هناك من يجادل في المكانة المتقدمة والريادية التي يحتلها نتاج هند أبو الشعر في مسيرة القصة القصيرة العربية بعامة، والأردنية بشكل خاص، بل إن إنجازها في القصة القصيرة ذات المنحنى النَّسوي، الجندري، بخاصة، يظل علامة مضيئة، ومحطة أساسية لا يملك أي باحث منصف أو قارئ حصيف سوى أن يتوقف عند عطائها الثرّ في هذا الحقل الإبداعي؛ لينهل من معينه، ويفيه حقه من الدرس والتأمل والتلقي الجاد.

وأما الجانب الثالث، أي الأكاديمي؛ فإنه يغري بالتوقف عنده طويلًا، ومع بعض التتبع لهذا الجانب الرئيسي، بقدر ما يسمح به برنامج هذه الندوة.

بداية؛ هناك عطاؤها المتخصص، في العلم الذي اختارته تخصصًا أكاديميًّا، عطاءٌ أعطى المكتبة العربية، بل أجزل العطاء للمكتبة الأردنية بشكل خاص، بما أنجزته الدكتورة هند من أسفار جليلة حول تاريخ الأردن الحديث، ولاسيما إبان العصر العثماني، ورسخت منهجًا علميًّا منتجًا في العودة إلى المظان الأساسية، في جهودها من وثائق رسمية ومتعلقات شخصية وعامة . وهل يمكن أن ننسى جهدها الرائد في التأريخ لإربد وضواحيها، أو نجاوز إنجازها الحاسم في نشأة الرواية العربية، حين أدت جهودها إلى تحول في مسارات هذا التاريخ الأدبي؛ فأماطت اللثام عن كنوز ظلت مفقودة وتائهة عن عيون القراء العرب عشرات السنين.

بذلت هند جهودًا شخصية مضنية ومكلفة، جهدًا ووقتًا ومالًا، للكشف عن الكنوز الروائية والإبداعية الأخرى التي أودعها لنا أديب وروائي أردني رائد في خزائن النسيان في مكتبات أوربا؛ فأعادت إلينا الآن رائدًا على مستوى الرواية العربية بحجم **عقيل أبو الشعر**.

وأما عطاؤها المباشر، كأستاذة لطلبتها ومريديها، فيمكن القول أن محاضرة الدكتورة هند، أو ندوتها في الدراسات العليا، كانتا بمثابة حدث ثقافي عند الكثيرين من طلابها، وأن كثيرًا

من عطاء هذه اللقاءات العلمية، كان يؤسس لعطاء أكبر ظهرت تجلياته، في العشرات من الرسائل والأطاريح الأكاديمية التي حملت بصماتها المتميزة.

وثمة جانب رابع في هذه الشخصية الغنية التي نحتفي بها اليوم؛ أعني جانب الناشطة الثقافية.

فمن الضروري أن نتذكر أن مكانة هند أبو الشعر تشغل مساحة واسعة في المشهد الثقافي المحلي والعربي، سواء في إسهاماتها المتواصلة في الفعاليات الثقافية التي تقام في كل ركن من أركان المملكة، أو في الملتقيات الثقافية خارجها، ولا أحسب هذه الأديبة الكبيرة إلا أن تلبي نخوتها العلمية إلحاح هذه الجهة أو تلك لإلقاء المحاضرات، أو المشاركة في الندوات والمؤتمرات، إضافة إلى الحضور الفاعل في تقديم أوراق العمل لهذه الملتقيات، أو إدارة المناقشات. وفي كل مرة يكون لديها الجديد، وفي جعبتها بل في خزائنها ما يشكل إضافات معرفية أو إبداعات متجددة تغني هذه اللقاءات، وتضفي عليها، مع الفائدة العلمية الخالصة، طابع البهجة والحيوية.

وناهيك بمشاركاتها في اللجان والأعمال الرسمية، سواء في الهيئات الثقافية، أو حتى في المؤسسات الإعلامية، أو اللجان الوطنية، إذ بات اسم هند أبو الشعر في العديد من هذه الفعاليات قاسمًا مشتركًا، بل مطلبًا ملحًّا يؤدي دوره في موقعه بكل كفاءة ونزاهة.

لا يمكن للحديث عن الجوانب الأربعة التي ذكرناها في شخصية هند أبو الشعر أن يتسم بأدنى درجة من الكفاية والتوازن، إلا إذا توقفنا عند كل جانب وقفة أطول، وتتبعنا في كل جانب جوانب أخرى فرعية، وهكذا لا يمكن لورقة كهذه، وفي وقت محدود كهذا، أن تفيها حقها كله، إلا بكلمات عابرة؛ ولذلك سأنتقل إلى المحور الثاني من هذه الورقة؛ أي الإجراء النقدي.

وهنا نعود إلى الوجه الثاني من الوجوه الإبداعية للدكتورة هند، أعني الإبداع القصصي، وقد اخترت أن أتوقف عند نموذج رأيته يمثل عطاءها، كما يشهد على أن مسيرة هند أبو الشعر، على الرغم من المنطلق الريادي لهذه المسيرة، لم تتوقف عند مرحلة بعينها، بل ظلت هذه المسيرة في حالة تجدد يواكب أحدث ما في لغه فن الصوت المنفرد من إنجازات، وأرحب ما ارتاده من فضاءات.

حسنًا؛ إنها قصة «**القضية**» من مجموعة «**عندما تصبح الذاكرة وطنًا**»، الصادرة في عمان عن وزارة الثقافة سنة ١٩٩٦.

وقد اخترت هذه القصة تحديدًا؛ لأنها تكاد تستجمع، بصورة أو بأخرى، المكونات الفكرية والجمالية التي يجود بها عالم هند أبو الشعر القصصي.

تقول الخطوط العامة للقصة، إن إحدى الزوجات لاحظت أن زوجها احتفظ بقصاصة من صفحة جريدة تتضمن صورة وخبرًا عن محاضرة ألقتها إحدى المحاميات، من نجمات مجتمعها المهني. هنا تدب الغيرة في قلب الزوجة، وتنبعث الأسئلة المضنية التي تبعثها الغيرة في أعماق روحها: لماذا هذا الاهتمام بخبر المحاضرة، وهل ثمة علاقة مريبة وراء هذه القصاصة وإيداعها في حرز أمين؟ وتصمم الزوجة على زيارة المحامية الشهيرة بحجة أن لديها قضية تود عرضها عليها، وبعد أن جالست المحامية، واتضح لها قوة شخصيتها ومهنيتها، تراجعت، وانسحبت، وأبلغت المحامية أنها غيرت رأيها، ولن تمضي في «القضية».

ينبثق من هذه القصة عدد من القضايا الفكرية والفنية تمكن مقاربتها على النحو الآتي:

١. **أن القصة تستحضر، إلى حد كبير، المرتكزات الفكرية والرؤى الأنثوية، إضافة إلى الأدوات التعبيرية، بطبيعة الحال، التي يقوم عليها ما بات يعرف اليوم بـ«الأدب النسوي»**. وهو أدب يقوم على الانحياز الإيجابي للمرأة؛ أي الانحياز بمعناه الإنساني

والاجتماعي والثقافي لما للمرأة من دين قديم في رقبة الضمير الإنساني، عبر قرون ومراحل حضارية.

ومن هنا؛ فإننا نجد أن «القضية» هي قضية تعني المرأة كيانًا حضاريًّا وإنسانيًّا وليس ـ وحسب ـ حالة فردية أو حتى اجتماعية. وتتضافر في إنجاز هذا الكيان النموذجي عناصر العمل الفنية والموضوعية معًا، فالحدث والحوار يقتصران ـ شكليًّا ـ على شخصيات نسوية وحسب، أما شخصية الزوج، فإنها مغيبة، ويصاغ الخطاب من دون حضوره ـ من وراء ظهره إن جاز التعبير ـ وأن اللغة تواكب المشاعر الأنثوية: «.....قررت أن أهتم بأظافري وأطليها بلون وردي كما تفعل هي».

٢. **ثم إن الرسالة الفكرية الأساسية للقصة، هي الرسالة الأولى للمرأة في الحياة، وهي الهاجس الأساسي وراء كل خطوة أو حركة أو تفضيل: أن تستمر الحياة؛** لأن هذه هي مسؤولية المرأة، لذا؛ لا ضرورة لرفع القضية، خشية تصدع جدار الحب الذي يحمي كيان الأسرة. فلتنتصر على هواجسها، إذن، ولتستمر الحياة، وليتواصل الحب.

٣. **والنص الجميل هو الذي يثير أسئلة أزيد مما يقدم أجوبة: هل من حق أحد الزوجين محاسبة الآخر على ماضيه (أو علاقته) قبل الزواج؟** ولئن تسامح أحد الطرفين بما يتصل بتجارب ما قبل التزام الطرفين تجاه بعضهما؛ فماذا عن هاجس استمرار «طيف علاقة» بعد الزواج؟ ماذا عن علاقة عن بعد؛ حتى لو بالخيال؟ ليس من مهمة النص أن تجيب عن هذا التساؤل. وحسنًا ما انتهى إليه الموقف في نص «القضية».

٤. **في الجانب التقني؛ أظهرت الكاتبة المخضرمة قدرة استثنائية على التقاط لحظات التوتر الإنساني؛ لتقيم عليها بناءها المحكم، مستعينة بالمواد الخام في تكوين جوهر الشخصية الإنسانية:** الغيرة، لا سيما الغيرة النسوية، والتردد، والسعي لليقين، والتطور الدرامي

في بناء الموقف، ثم بلوغ القرار، ثم هذا التصوير المدهش، في مطلع القصة، للحظة زمنية متأججة بالمشاعر والتجاذبات النفسية؛ على الرغم من أن الزمن في هذا المقطع هو زمن ناجز، لكنه ليس خاملًا؛ بل محتشدًا بالمشاعر المتفجرة، والهواجس المجنونة.

٥. **من حيث الزمن الفني؛ ثمة أزيد من بُعد؛ فهناك أولًا الزمن الناجز الذي يلخص الحكاية كلها بإشارات حول أصل العلاقة**، مرورًا بالزواج، إلى المحاضرة، فالخبر الصحفي حولها، واكتشاف الزوجة القصاصة، ثم الليلة الليلاء التي أمضتها الزوجة في استجواب زوجها، ثم وهي تتقلب فوق جمر الغيرة، إلى اللحظة التي واتت الزوجة فيها فكرة افتعال «القضية» و«الشروع بالمواجهة» مع هذا الخصم، الذي انشقت عنه وتشققت معه الأرضية التي تحمل حياتها الزوجية الوادعة، ليبدأ من ثم السرد بالزمن الفني: «عندما رفعت السكرتيرة رأسها في اليوم التالي وحيّتني، وخلعت نظارتها الطبية، ثم أجلستني .....».

إن الكلام مع السكرتيرة، وما أعقبه من حوار سريع مع المحامية، وإشراقات الموقف، وحقيقة شخصية المحامية، كما تمثلت للزوجة، ثم اتخاذ الزوجة القرار التصالحي: «آسفة ....غيرت رأيي....لا أريد أن أرفع القضية ...؟»، كل هذا قد لا يتعدى، افتراضًا، بضع دقائق أو بعضًا من ساعة على الأكثر، وبهذا التكثيف تحقق للقصة أول الشروط التي تؤكد شخصيتها الفنية قصةً قصيرةً: وحدة الزمن.

٦. **ومن هذه الشروط الشائعة في أدبيات هذا النوع السردي، وحدة الشخصية، فنحن، في حقيقة الأمر، بإزاء شخصية واحدة، هذا ما يخبرنا به الراوي الأنا، وما يؤكده موقع الراوي الذي يلازم مظاهر الشخصية الواحدة؛ أي الزوجة، ملازمة مطلقة**، فلا اشتباك مع الزوج، أو مع السكرتيرة ثم المحامية، ولا اشتباك مع اللحظة الراهنة، أو مقاربة

الزمن الناجز، إلا من خلال شخصية الزوجة، وما غير الزوجة من الشخصيات إلا أدوات أو مفاتيح نلج من خلالها إلى دهاليز عالم الزوجة، سواء عالمها الداخلي من هواجس ومشاعر ومواقف وتذبذبات وتقلبات، أو عالمها الخارجي من زمان ومكان وإنسان وأشياء (أي إكسسوارات).

٧. **أما الحدث، فهو حدث نفسي، في المقام الأول، ظل فضاؤه وتداعياته وصراعاته وتجاذباته رهن النطاق النفسي والعقلي والوجداني للشخصية (الزوجية)، وحين تتخذ هذه العناصر الحبيسة مظاهر التجلي وتجليات الفعل الإنساني؛ فإنها تنعكس في الموقف والحدث.** ولعل الأنسب، عند الخوض في العناصر «التقليدية» عن القصة القصيرة، أن نتحدث عن وحدة الموقف، وليس عن وحدة الحدث وحسب؛ فالشخصية الأساسية تخرج، في الأغلب الأعم، مع نهاية القصة، وإن شئنا أن نكون تقليديين بأزيد مما ينبغي، نقول: تخرج الشخصية مع لحظة التنوير ـ إن وجدت ـ أو مع ذروة الحدث climax بموقف جديد، وربما بتوجه جديد، سواء بالنسبة للحدث نفسه، أو بالنسبة للشخصية نفسها، بمعنى أن الزوجة حين اختارت، في نهاية المطاف، ألا ترفع «القضية»، فإن هذا يمثل رؤية جديدة تتعلق بحياة الشخصية وموقفها العام في الحياة: أي إنها خلصت إلى أن حياتها الزوجية واستقرارها الأسري أهم من تلك الهواجس العابرة، وأفكار الغيرة غير العقلانية. والموقف هنا يؤدي وظيفتين، على الأقل؛ الأولى: الوظيفة البنيوية التي عالجت لحظة التأزم في ذروتها، فكانت حلًّا فنيًّا منطقيًّا، والثانية؛ الوظيفة الفكرية أو القيمية التي تجلت بهذا الإجهاض النفسي المريح، الذي تحقق للشخصية بتخلصها من هواجس هذه التجربة، التي لا بد ـ بما انتهى إليه موقف الزوجة ـ أن تكون «قضية» عارضة.

٨. **ويبقى عطاء الانطباع، وهو عطاء نعيشه تجربة تلق شعورية من الصعب الإحاطة النظرية بها أو حتى تأصيلها على نحو جامع مانع**؛ فهذه التجربة لا تسلم نفسها إلا للجانب الوجداني في عملية التلقي، وهذا ـ على ما أرى ـ قد تحقق في هذا التضامن البديع بين التكثيف الزمني الذي يختصر تجربة عمر بساعة واحدة أو حتى بأقل، وفي هذا الاستحضار الدقيق اللافح لحرارة الاضطرام في أعماق الشخصية، وفي هذا التماسك الصارم بين مكونات النص الفنية والفكرية والقيمية والسيكولوجية الطبيعية، الموصولة بأعماق الحياة الإنسانية (وليس الحياة الشخصية وحسب) ...الحياة بكل كائناتها وأشكالها وتنوعاتها.